المحاضرة الثالثة

الترجمة في الحضارة العربية الإسلامية.

_ تمهيد:

واجه العرب الأوائل الثقافات اليونانية التي كان الإغريق يفرضها على العالم القديم من خلال المراكز العلمية والأديرة المنتشرة التي كانت تعنى بالكتب والترجمات لعلوم الأوائل، فكانوا يحصلون على ترجمات لبعض الكتب باللغة العربية، حيث قام فريق من العلماء السريانيين على ترجمة كثير من الثقافات اليونانية والفارسية والهندية إلى لغتهم ثم إلى اللغة العربية، وترجموا للخلفاء المسلمين بعض الكتب التي تعنى بالطب والتاريخ والنظم السياسية[i].

وعندما فتح العرب، في القرن الأول الهجري، العراق وسوريا ومصر، كانت العلوم والفلسفة اليونانية سائدة في مختلف المراكز العلمية هناك، قبل ذلك كانت مدرسة الإسكندرية الشهيرة قد انتقلت إلى سوريا، وبعد ذلك، حوالي عام 900م، انتقلت إلى بغداد، حيث كان ممثلو هذه المدرسة – رغم كونهم من المسيحيين – يشاركون في المناقشات الفلسفية.

وفي حرَّان كانت هناك مدرسة شبه فلسفية لطائفة الصابئة، اقتدى ممثلوها ببغداد. ولكن المدرسة السريانية في مدينة جنديسابور كانت أهم المراكز العلمية، وقد اشتهرت هذه المدرسة في مضمار تدريس الطب بوجه خاص، منها تخرج الطبيب الخاص لهارون الرشيد، ومنها أيضاً تخرج _ خلال ما يقارب المئة عام _ أخلافه ممن كانوا يزاولون مهنة الطب في البلاط، بفضل هذه الاتصالات أصبح الخلفاء _ وغيرهم من الزعماء المسلمين _ يدركون مدى إمكانية الاستفادة من العلوم اليونانية، فنظموا عملية نقل أهم مؤلفاتها إلى اللغة العربية من اللغة السريانية (التي كانت لغة التدريس في جنديسابور وغيرها من المراكز العلمية).

ومنذ ذلك الوقت بدأ يتدفق سيل عارم من التراجم، استمر طوال القرن التاسع والجزء الأعظم من القرن العاشر، حتى أنجزت ترجمة كل المؤلفات اليوناينة، التي حظيت باهتمام العرب. جرت الترجمات الأولى من اللغة السريانية، حيث أن عدداً كبيراً من المؤلفات اليونانية كان قد ترجم إلى هذه اللغة، كذلك كان من الأسهل العثور على أناس يعرفون اللغتين العربية والسريانية، نظراً لسعة انتشار هذه الأخيرة في العراق، بينما كانت معرفة اليونانية أمراً نادراً. ولكن بمرور الأيام بدأت عملية النقل المباشر من اليونانية إلى العربية، ويربط معظم المؤرخين هذا الانتقال باسم مسيحي نسطوري، وهو حنين ابن إسحق[ii].

1 _ مراحل الترجمة العربية الإسلامية:

مرت الترجمة في المشرق العربي الإسلامي – وعبر أربعة قرون من تاريخها – بمراحل مختلفة من التطور، ابتداء من القرن الأول الهجري حتى وصلت إلى قمتها في بغداد في منتصف القرن الرابع الهجري.

أ_ الترجمة في العصر الأموي:

ونبدأ بالترجمة في العصر الأموي؛ إذ لم يؤدِّ الأمويون دوراً كبيراً في حركة الترجمة، بل كان دورهم ثانوياً؛ لأنهم كانوا حريصين على حماية الثغور وفتح البلدان وتأمين الدولة الجديدة، ما عدا الدور الذي أدّاه خالد بن يزيد الذي ترك الإمارة والحكم وكرّس جهده للطب وترجمة كتب الكيمياء والطب إلى العربية، وظهر في هذا العصر الطبيب ما سرجويه، وكان ينقل من السريانية إلى العربية، ودارت في هذا العصر مناقشات وجدال حول الإمامة والجبر والاختيار كانت إرهاصاً بظهور الفرق الإسلامية فيما بعد[iii].

ويمثل العصر الأموي أول دور من أدوار حركة الترجمة، و كانت الترجمة في هذا العصر ترجمة بدائية وضعيفة المستوى، إلا أن هذا العصر كان حجر الأساس لبناء هذه الحركة عموماً، كما أنه كان المنطلق الأول لها في أنحاء العالم الإسلامي مشرقة ومغربه.

فلقد عني الأمويون بنقل العلوم القديمة، أخص بالذكر منها علوم اليونان إلى اللغة العربية بواسطة العلماء السريان، إذ خدم السريانيون العلوم بما ترجموا وما ألفوا وظهر في هذا العصر كثير من العلماء وكان أكثرهم فلاسفة وأطباء معاً لأن دراستهم الطبية لم تكن منفصلة عن دراستهم الفلسفية. وهكذا طرأ على الأدب والعلوم في العصر الأموي تبدل سببه استفادة العرب من فتوحهم، ووقوفهم على آثار المدنيات لأمم ذات حظ من العلوم غير قليل، ولقد كان لكتاب الله، المعجز بآياته وسحر بلاغته، أثره في فتق أذهانهم وصقل عباراتهم وتوحيد لهجاتهم كما كان للحديث الشريف وتحريضه على طلب العلم أثره البالغ فيهم. ولقد تمت أول ترجمة من اليوناينة إلى العربية في عهد الخليفة الأموي مروان بن الحكم بين سنتي 64 و65هـ فترجم بأمره ماسرجويه الطبيب البصري السرياني الموسوعة الطبية التي من تأليف القس أهرن ابن أعين الإسكندراني، وهي كناش في ثلاثين مقالة أضاف إليها ماسرجيس – ما سرجويه – مقالتين.

وأما دواوين الأموال فإنها كانت بعد ظهور الإسلام بمصر والشام والعراق على ما كانت عليه قبل الإسلام، فنُقل ديوان مصر من القبطية إلى العربية في إمارة عبد العزيز بن مروان على مصر، كما نُقل ديوان الشام من الرومية إلى العربية في سنة إحدى وثمانين من الهجرة، وأما ديوان العراق فنقله صالح بن عبد الرحمن في زمن الحجاج[iv].

وقد كانت الترجمة في تلك المدة مقصورة على بعض العلوم الطبيعية كالكيمياء والطب، دون أن يتعدى ذلك إلى العلوم العقلية كالمنطق وعلم النفس وما وراء الطبيعة، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى أن اهتمام الناس كان موجهاً بكليته إلى العلوم الدينية الإسلامية، وكانوا ينظرون إلى العلوم التي تدرس في المراكز الثقافية (القديمة) على أنها علوم غير المسلمين، مما أدى إلى انصرافهم عنها، وظلت العناية بها قاصرة على النصارى والصابئة واليهود على اختلاف مذاهبهم ونحلهم.

ولعل الأمير خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان الأموي هو أول شخصية في الإسلام يرعى ترجمة كتب الطب والكيمياء والفلك إلى اللغة العربية، كما أنه أول عربي يبحث في العلوم العقلية ويظفر منها بمركز جدير بالنظر والاعتبار.

وكان خالد بن يزيد بن معاوية موصوفاً بالعلم حكيماً شاعراً، وله كلام في صناعة الكيمياء والطب وكان بصيراً بهذين العلمين متقناً لهما وله رسائل دالة على معرفته وبراعته، ومما نسبوا إليه من التصانيف في الكيمياء: السر البديع في فلك الرمز المنيع، وكتاب الفردوس ورسائل أخرى. ولما توفي خالد بن يزيد سنة تسعين وقيل سنة خمس وثمانين وشهد له الوليد بن عبد الملك وقال: ليلق بنو أمية الأردية على خالد فلن يتحسروا على مثله أبداً.

وقد دفعه تحمسه للعلم والمعرفة إلى الحصول على مصنفات الإغريق والسريان، حيث أمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كان يترل مدينة مصر وقد تفصح بالعربية، وطلب إليهم ترجمة العلوم وبالأخص كتب الكيمياء من اللغتين اليونانية والقبطية إلى اللغة العربية، وهذا أول نقل في الكتب في الصنعة (الكيمياء) من اللسان اليوناني والقبطي إلى العربي، وهذا أول نقل في الإسلام من لغة إلى لغة.[v] كما ونُسب إليه ترجمة كتب النجوم والطب وغيرها[vi].

ومن المصنفات التي ترجمت من السريانية إلى العربية في هذا القرن كتاب (كناش) في الطب، من تأليف أهرون بن أعين القس، قام بترجمته أشهر نقلة هذا القرن الطبيب البصري ماسرجويه (اليهودي المذهب السرياني اللغة) ويسمى أيضاً ماسرجيس، ترجمه في أيام الخليفة مروان بن الحكم (ت65هـ)، ثم حفظ في خزائن كتب الأمويين إلى أن أخرجه عمر بن عبد العزيز (99- 101هـ) ونشره بين الناس للانتفاع به[vii].

ب – الترجمة في العصر العباسي:

بدأت الترجمة في هذا العصر في خلافة المنصور ونشطت حركة الترجمة من اليونانية إلى السريانية وظهرت أسماء بعض المترجمين في هذا العصر أمثال سرجيوس الرأس عيني أو الرسعني الذي ترجم آثار جالينوس في الطب والأخلاق وآثار أرسطو المنطقية إلى السريانية، وعبد الله بن المقفع الذي ترجم من الفارسية إلى العربية حكايات كليلة ودمنة، وقيل: إنه ترجم بعض كتب أرسطو في المنطق، وازدهرت حركة الترجمة في عصر المأمون إذ إنه أسس في بغداد مدرسة الحكمة أو بيت الحكمة سنة 217هـ، وائتمن يحيى بن ماسويه عليه، وخلف يحيى تلميذه الشهير حنين بن إسحق في الفترة الواقعة بين سنة 194-260هـ، وكان حنين أشهر مترجم للمؤلفات اليونانية إلى السريانية والعربية من دون منازع، وكذلك كان ابنه إسحاق بن حنين وابن أخيه حبيش بن الحسن، ومن الأسماء التي لمعت في فن الترجمة يحيى بن البطريق (مطلع القرن التاسع الميلادي) وعبد المسيح بن عبد الله بن ناعمة الحمصي)النصف الأول من القرن التاسع)، وهو الذي كان مساعداً للفيلسوف الكندي وقد ترجم لأرسطو، وإليه يرجع الفضل في ترجمة كتاب الربوبية)إثولوجيا) المنسوب إلى أرسطو، وكان قد وضعه أفلوطين الإسكندري، وكذلك لمع اسم قسطا بن لوقا البعلبكي، وقد كان طبيباً وفيلسوفاً وفيزيائياً معروفاً، ترجم شروح الإسكندر الأفروديسي ويوحنا فيلويون على كتاب الطبيعة لأرسطو، وله شروح جزئية للكون والفساد لأرسطو، وله رسالة في الفرق بين الروح والعقل، وله بحوث في الشفاء شبيهة بعلم النفس المعاصر[viii].

ولقد وجدت مدارس تخصصت بالترجمة في العهد العباسي رعى عدداً منها الأفراد، وأشرفت على بعضها الدولة إشرافا مباشراً، وعهدت بإدارة إحداها إلى حنين بن إسحاق. وكان من أبرز رجال العصر الذين اقتدوا بالخلفاء في تشجيع النقل في مدارسهم الخاصة الأبناء الثلاثة لموسى بن شاكر.

ولقد اشتهر من التراجمة: آل بختيشوع، عمر بن فرخان الطبري، أيوب الزهاوي الأبرشي، الحجاج يوسف بن مطر، هلال الحمصي، آل ماسيويه، حنين بن إسحق العبادي، أبو زكريا يحى بن البطريق، قسطا بن لوقا البعلبكي، أبو زكريا يحيى بن عدي، أبو علي عيسى بن زرعة.

وأنشأ الخليفة المأمون سنة 315هـ مدرسة للترجمة وعهد إلى حنين بإدارتها. فكان حنين من أئمة الترجمة في الإسلام، اختير للترجمة وائتمن عليها ووُضع له كُتّاب عددهم أربعون، عالمون بالترجمة، كانوا يترجمون ويتصفح حنين ما ترجموا، مثل أسطيفن – اصطفن بن بسيل – وحبيش، وموسى بن أبي خالد الترجمان، ويحيى بن هارون. وكان يجيد اللغتين السريانية والعربية، فإنه أتقن الإغريقية عندما عاود الظهور في بغداد، وفضّل العمل مستقلاً، كما فعل بنو موسى، فترجم أعمالاً في الطب والفلسفة والفلك والرياضيات والسحر، كذلك أشرف على ترجمات ابنه إسحق، وابن أخته حبيش بن الحسن وحواريين آخرين، ولما كان حنين هو الوحيد بين شركائه الذي أتقن الإغريقية، فإنه كان يقوم عادة بترجمة أولية إلى السريانية أو إلى العربية في بعض الأحيان. وكان إسحق وحبيش يعرضان عملهما على حنين لمراجعته وتصويبه، وقد أحكم حنين المراقبة على مريديه طوال حياته، إلا أن عملهم لم يقابل إلا بتقدير بخس. من ناحية أخرى، كان حبيش مترجماً جيداً للمواد الطبية، لكنه تحمل مع آخرين مسؤولية كاملة لترجمة المواد الفلسفية والرياضية التي تتضمن كل مؤلفات أرسطو تقريباً. جمع حنين قائمة أعمال جالينوس التي كانت متوفرة في عصره، وحدد منها حوالي مئة عمل ترجمها بنفسه إلى السريانية أو العربية، وبالإضافة إلى هذه الترجمات ، شمل إنتاجه الضخم ترجمات لأبقراط وأطباء آخرين، كذلك صنف أعمالاً أخرى من بينها: كتب في طب العيون، وطبيعة الضوء، والخيمياء[ix].

إلى جانب دوره الحاسم كمترجم وعالم ومعلم، قدم حنين أهم إسهام في تقدم الثقافة العربية بجهوده الناجحة في ابتكار معجم تقني للمفردات العربية والسريانية، واعترافاً منه بالحاجة الضرورية إلى نصوص جيدة، فإنه عمل مع زملائه على مقارنة النصوص الحرجة والمقابلة بينها، مع أخذ القراءات المختلفة في الحسبان، قبل البدء في الترجمة، وقام حنين بتنقيح ترجماته، بعد أن ظهر اختلاف في المعاني، وبهذه الطريقة أُسست منهجية يقاس عليها للترجمات التالية[x].

واشتهر أبو الحسن ثابت بن قرة الحراني (ت 288هـ) سكن مدينة بغداد وكان الغالب عليه علم الفلسفة دون الطب، وكان في دولة المعتضد، وله كتب كثيرة في فنون من العلوم كالمنطق والحساب والهندسة والتنجيم والهيئة، وكان من مشاهير نقله العلوم في الإسلام[xi].

واشتهر من بين المترجمين حبيش بن الحسن الدمشقي المعروف بحبيش بن الأعسم: هو ابن أخت حنين بن إسحق وتلميذه، وقد اشتهر بالطب والترجمة من اليوناني والسرياني وهو ناقل جيد النقل.

واشتهر اصطفان بن بسيل: وهو مترجم من مدرسة حنين بن إسحاق، يحمل اسمه الظن على أنه كان من اليونان [xii].

ويعد الأديب والكاتب عبد الله بن المقفع (ت 142هـ) من أشهر النقلة في عصر المنصور، ومن أوائل المترجمين الجيدين، وهو الذي نقل إلى العربية ما كانت الفرس نقلته في القديم من كتب الطب والمنطق إلى اللغة الفارسية، يقول صاعد الأندلسي في (طبقات الأمم): «إن أول علم اعتُني به من علوم الفلسفة: علم المنطق، وأول من اشتهر في هذه الدولة (العباسية) عبد الله بن المقفع الخطيب الفارسي... فإنه ترجم كتب أرسطوطاليس المنطقية الثلاثة، وهي: كتاب «قاطاغورياس» (ومعناه المقولات)، وكتاب «باري أرمنياس» (ومعناه العبارة) وكتاب «أنالوطقيا» (ومعناه تحليل القياس)... وعبّر عما ترجم من ذلك عبارة سهلة قريبة المأخذ، وترجم مع ذلك الكتاب الهندي المعروف بكليلة ودمنة، وهو أول من ترجم من اللغة الفارسية إلى اللغة العربية».

ويضاف إلى ما نقله ابن المقفع عن الثقافة الفارسية: كتاب «خداينامه» (في تاريخ ملوك الفرس) وكتاب «آيين نامه» في مراسم الملك، وكتاب «التاريخ في سيرة أنوشروان» وكتاب «سيرة مزدك»، وكتاب «اليتيمة في طاعة السلطان»، وغير ذلك من الكتب.

وجملة القول فإن المنصور هو أول من ازدهرت في عهده حركة الترجمة من خلفاء بني العباس، و أمدها بكل ما احتاجت إليه، الأمر الذي ترتب عليه فيما بعد إيجاد نهضة علمية زاهرة في بغداد كان قيامها نتيجة حتمية لما تمت ترجمته من مؤلفات في شتى العلوم التجريبية والعقلية من اللغات والسريانية والسنسكريتية (الهندية القديمة) إلى اللغة العربية[xiii].

ولم تلق حركة الترجمة الاهتمام ذاته من لدن الخليفتين المهدي (158-169هـ) والهادي (169-170هـ)، الأمر الذي أدى إلى ركود ذلك النشاط الذي حفل به عهد المنصور، ولكن لم يدم ذلك طويلاً، إذ سرعان ما بزغ عصر جديد بلغت فيه الترجمة مبلغاً جاوز في حده كل ما سبق في هذا الباب، ذلك هو عصر هارون الرشيد (170-193هـ).

كان للرشيد شغف عظيم بالعلم والأدب أكثر من أي واحد من أسلافه، وكان للرعاية التي أولاها لحركة الترجمة وتشجيعه المادي لها أهم الأسباب التي حدت بها أن تبلغ ما بلغته في هذا الوقت، ولذلك عُد عصره من أزهى العصور التي مرت بها الترجمة قبل الخليفة المأمون.

ومن مظاهر عناية الرشيد بالترجمة أنه كان يولى العلماء الذين يدرسون كتب العلوم اليونانية ويترجمونها بمساعدات مجزية، كما أنه أنفذ الرسل إلى إمبراطورية الروم لجلب المخطوطات اليونانية، وهي سياسة سخية جاءت إلى بغداد بكثير من المؤلفات الهامة[xiv].

وقد عني البرامكة في عهد الرشيد عناية خاصة وواسعة بترجمة التراث الفارسي، ونرى جيلاً كبيراً ينهض في عصرهم والعصر الذي تلاهم بهذه الترجمة، أمثال آل نوبخت، وفي مقدمتهم أبو سهل الفضل بن نوبخت الذي أكثر من ترجمة كتب الفلك، وقد ذكره النديم.

واهتم البرامكة أيضاً بالتراث الهندي وترجمته، فقد اجتلب يحيى بن خالد البرمكي إلى بغداد أطباء الهند؛ مثل: منكه وبازيكر وقلبرقل وسندباد، وفتح لهم بيمامارستاناً (مستشفى)، وسرعان ما استعربوا وشاركوا هم وغيرهم من مستعربة الهند في نقل الكنوز الهندية ، وخاصة في الطب والعقاقير.

وسَّع الخليفة هارون الرشيد من نشاط الترجمة على أساس أكثر منهجية وتنظيماً، وقد حصل على مجموعات كبيرة من المخطوطات اليونانية موجودة في عمورية وأنقرة، كما حصل على كتب إغريقية أخرى في العلوم الفيزيائية بطلب دبلوماسي من الإمبراطور البيزنطي، وأصبحت «خزانة الحكمة» وسيلة مرجعية للفلكيين والفيزيائيين، وكانت من الضخامة بحيث احتاجت إلى أمين يقوم على إدارتها، فعين هارون الرشيد لهذا المنصب مترجماً للأعمال الفارسية هو الفضل بن نوبخت الذي استعان به جده في تأسيس بغداد[xv].

وكانت النتائج الهامة التي تمخض عنها الدور الذي قام به كل من المنصور والرشيد في حركة الترجمة بمثابة الطريق المعبد الذي مهد للمأمون (198-218هـ) للسير في الاتجاه ذاته.

وتبدأ عناية المأمون بالترجمة بعد دخوله بغداد مع مطلع القرن الثالث الهجري الذي يعد نقطة تحول في تاريخ الترجمة، لما آلت إليه من التطور والانتشار السريع في امتدادها إلى ضروب العلوم المختلفة التي خضعت لها، وبلوغها آخر مراحل نضجها لم تبلغه طيلة تاريخها؛ الأمر الذي يمكن معه أن يطلق على هذا القرن اسم «قرن الترجمة»، وذلك بسبب التحولات الجذرية التي شهدها هذا الميدان بصفة خاصة، وما رافق ذلك نتائج بصفة عامة.

في هذا الدور تقاطر إلى بغداد المترجمون من أنحاء العراق والشام وفارس، وفيهم النساطرة واليعاقبة والمجوس والروم والبراهمة يترجمون من اليونانية والفارسية والسريانية واللاتينية و الهندية، ولعل أهم ما يميز تلك المرحلة من تاريخ الترجمة أن الحصول على كتب الأوائل بأنواعها أصبح مطلباً ثقافية عاماً، وأن البحث عنها في بلاد الروم واستدعاء المترجمين لها، وإجزال العطاء لهم لم يكن عملاً ملكياً فقط (كما كان المأمون يفعل)، ولكن كان الأفراد الأغنياء يتولون ذلك أيضاً، ويقوم به المترجمون أنفسهم.

وبهذا الخصوص يقول النديم – مثلاً – عن محمد وأحمد والحسن أبناء موسى بن شاكر المنجم: – وكان أفراد هذه الأسرة من مشاهير علماء بغداد في علوم الرياضيات والفلك – «وهؤلاء القوم ممن تناهى في طلب العلوم القديمة، وبذلوا فيها الرغائب، وأتعبوا فيها نفوسهم، وأنفذوا إلى بلد الروم من أخرجها إليهم، فأحضروا النقلة من الأصقاع والأماكن بالبذل السني، فأظهروا عجائب الحكمة». ويذكر القفطي ما يفهم منه أن الطبيب والفيلسوف حنين بن إسحق العبادي (ت 260هـ) – وكان من كبار النقلة في

بغداد – بحث عن الكتب لحسابه، وأنه «دخل بلاد الروم لأجل تحصيل كتب الحكمة، وتوصل في تحصيلها غاية إمكانه، وأحكم اليونانية عند دخوله إلى تلك الجهات، وحصّل نفائس هذا العلم، وعاد يلازم بني موسى بن شاكر، ورغبوه في النقل من اللسان اليوناني إلى العربي». ويذكر القفطي أيضاً أن محمداً بن إسماعيل التنوخي المنجم بلغ من شدة بحثه عن هذه العلوم أنه رحل في طلبها إلى الآفاق، ودخل الهند، وأخذ عنها غرائب في علم النجوم والفلك[xvi].

وفي دار بني موسى بن شاكر ببغداد كان يعمل – دون إبطاء – فريق كبير من المترجمين من أنحاء البلاد، وقد عرف هؤلاء الأخوة الثلاثة (محمد وأحمد والحسن أبناء موسى بن شاكر) بالبذل في سبيل التعريب والترجمة بقصد تشجيعها وتنشيطها، حيث كانوا يغدقون على النقلة كل ما يحتاجون إليه من مال لنقل العلوم والمعارف، وفي ذلك يقول ابن أبي أصيبعة: «إن بني المنجم كانوا يرزقون جماعة من النقلة – منهم حنين بن إسحق وحبيش بن الحسن الأعسم وثابت بن قرة الصابئ وغيرهم – في الشهر نحو خمسمئة دينار للنقل والملازمة»[xvii].

وكان بنو موسى بن شاكر الثلاثة، محمد وأحمد والحسن، بترتيب أعمارهم بدءاً من الأكبر، أصحاب دور رئيس في رعاية العلم والتقنية أيام حكم المأمون ومن خلفوه مباشرة، وكان أبوهم موسى بن شاكر فلكياً بارزاً ومرافقاً للمأمون وقت أن كان مقيماً في خراسان قبل توليه الخلافة، وعندما توفي موسى أصبح الإخوة الثلاثة تحت وصاية المأمون الذي أرسلهم إلى بيت الحكمة لاستكمال تعليمهم، وبعد أن تركوا بيت الحكمة، عهد إليهم المأمون ومن جاؤوا بعده بمشاريع مختلفة شملت أعمال المساحة الجيوديسية، كما أصبحوا مقاولين لمشاريع عامة. وربما كان هذا، إلى جانب مباشرتهم أنشطة أخرى، سبباً في ثرائهم وقوة تأثيرهم، وأصبح محمد في أواخر أيامه ضمن حكماء القصر، وقت أن انتقلت السلطة الحقيقية من الخلفاء إلى قادة جيوشهم الأتراك.

إنَّ الأعمال الفكرية لبني موسى بن شاكر تمثل إسهامهم الرئيس في نشأة العلم العربي، وقد خصصوا معظم ثروتهم وكرسوا جهدهم للبحث عن أعمال الكتّاب القدامى، وأرسلوا بعثات إلى بيزنطة لجلب مثل هذه المؤلفات إلى بغداد. ويقال إن محمداً قام شخصياً برحلة إلى بيزنطة، ورافق المترجم المشهور ثابت بن قرة محمداً عند عودته إلى بغداد، وبدأ عمله في منزل محمد.

واعتاد الإخوة الثلاثة أن يدفعوا حوالي 500 دينار شهرياً لمجموعة المترجمين الذين عملوا في بيت عالية، والأرجح أنهم كانوا أكثر العوامل المستقلة الفاعلة في تشجيع استيعاب الأعمال الأجنبية وتمثيلها بالعربية، لكنهم أبدعوا أيضاً بأنفسهم أعمالاً ابتكارية مهمة، وتذكر المصادر أنهم صنّفوا حوالي عشرين كتاباً شملت رسائل في الرياضيات والفلك والميكانيكا، لم يبق منها سوى ثلاثة كتب، أحدها في الأغلب لأحمد، وهو كتاب قيم في الميكانيكا والآلات البارعة بعنوان «كتاب الحيل».[xviii]

أما عن أشهر النقلة في القرن الثالث الهجري فلا بأس أن نشير هنا إلى عدد من القمم البارزة، فمنهم: يوحنا بن البطريق وحنين بن إسحق العبادي (ت 260هـ) وولده إسحق بن حنين بن إسحق (ت 298هـ) ويعقوب بن إسحق الكندي الفيلسوف (ت 255هـ) وثابت بن قرة الحراني (ت 288هـ) وعمر بن الفرخان الطبري البغدادي وحبيش بن الحسن الأعسم تلميذ حنين وابن أخته وقسطا

بن لوقا البعلبكي (ت 300هـ) وغيرهم. وأربعة من هؤلاء كانوا حذّاق الترجمة في الإسلام كما يقول أبو معشر البلخي البغدادي، وهم: حنين بن إسحق والكندي وثابت بن قرة وعمر بن الفرخان[xix].

وبالرغم من أن القرن الثالث الهجري – عصر الترجمة الحقيقي – كان قد استوفى أهم أغراضه في هذا الميدان؛ حيث أدخل إلى اللغة العربية أهم ما في تراث الأوائل من أمهات المصادر في مختلف فروع العلم التجريبي وبعض جوانب فروع الأدب والتاريخ – بالرغم من ذلك فإن المد التعريبي لم ينقطع بعد ذلك، ولكن استمر قائماً حتى أواسط القرن الرابع الهجري تقريباً[xx].

ويعد النصف الأول من القرن الرابع الهجري هو المكمل المباشر لنظيره النصف الأول من القرن الثالث في مجال الترجمة، وعلى الرغم مما قيل في هذا القرن الجديد من حيث ازدهار حركة الترجمة فيه فإن القرن السابق عليه – الثالث الهجري – كان أفضل في هذه الناحية من وجوه عديدة؛ أهمها أن القرن الثالث قد شهد رعاة كثيرين لحركة الترجمة هذه وعلى مختلف المستويات، سواء كان ذلك من جانب الخلفاء أو من جانب بعض الشخصيات العلمية البارزة في الدولة ممن عضدوا هذه الحركة وآزروها. ومن جهة ثانية فإن القرن الثالث الهجري كان قد شهد نشاطاً غير محدود في هذا الميدان أسفر عن قيام حركة ثقافية في التدوين والتأليف، ولكنها كانت أقل اتساعاً من حركة الترجمة ذاتها. في حين انبثقت في القرن الرابع حركة واسعة في التدوين والتأليف على حساب حركة الترجمة وكنتيجة مباشرة لها. وفي هذا السياق يقول الدكتور محمد جمال سرور: «شغل علماء بغداد وغيرها من الحواضر الإسلامية في القرنين الثاني والثالث الهجري بنقل وترجمة العلوم الأجنبية إلى العربية، ولكنهم في القرن الرابع انصرفوا إلى الإنتاج الشخصي»، وهذا يعني – كما يقول أحد الباحثين – أن القرن الرابع ما كاد يستهل حتى أخذت الحركة العلمية (ببغداد – المشرق) في النضج، وغدت الترجمات مردفة بالتعليقات والشروح، وبدأت المؤلفات تظهر أولاً بصورة دراسات قصيرة في موضوعات محدودة، ثم بشكل مؤلفات جامعة فيها اقتباس واجتهاد وتحليل ونقد، وتنظيم وتبويب واستنباط.

ومع أن القرن الرابع الهجري يتميز بهذه الخصوصية فإنه كان قريب الشبه بالقرن السابق عليه من حيث كثرة عدد النقلة الذين قدموا للعلم والحضارة خدمات جليلة، ومن أشهرهم: الطبيب البارز سنان بن ثابت بن قرة الحراني (ت 332هـ) وأبو بشر متى بن يونس (ت 339هـ) ويحيى بن عدي التكريتي البغدادي (ت 364هـ) وعيسى بن إسحاق بن زرعة (ت398هـ) وغيرهم[xxi].

وبالإمكان ذكر بعض طبقات النقلة الذين عرفوا في أواخر العصر الأموي وحتى العصر العباسي غير الذين ذكرناهم أو من ذكرناهم ولكن نوردهم هنا ضمن طبقاتهم:

– فقد كان هناك أفراد منذ العصر الأموي نقلوا الكتب ابتداء من أنفسهم أو بطلب من غيرهم، من هؤلاء اصطفن القديم وهو اصطفن الإسكندراني ثم عبد الله بن المقفع.

– آل ماسرجويه: أولهم ماسرجويه الطبيب، وكان يهودي الدين سرياني اللغة بصري الدار. ويقال إنه بدأ بالنقل منذ أيام الدولة الأموية قبل خلافة عصر بن عبد العزيز (101هـ)، وعمَّر ماسرجويه حتى أدرك أبا نواس، وقد نقل كتاب القس أهرون بن أعين الإسكندراني، ولماسرجويه أيضاً كناش (مجموع) في الغذاء، وكتاب في العين.

– آل بختيشوع: وهم نصارى نساطرة كانت لغتهم السريانية؛ وقد اشتهر منهم في صناعة الطب ستة أجيال، فمنهم:

أ– جورجيس بن بختيشوع: كان جورجيس طبيباً ماهراً، وكان رئيساً للأطباء في مارستان جنديسابور، استقدمه المنصور سنة 148هـ إلى بغداد ليداويه، ثم جعله طبيبه الخاص. وكان جورجيس ناقلاً من اللغة اليونانية إلى اللغة السريانية، ويقال: إن له كناشاً مشهوراً (مجموعاً في الطب) نقله حنين بن إسحق إلى العربية.

ب – جبرائيل بن بختيشوع بن جورجيس: كان طبيباً كأبيه، خدم هارون الرشيد ثلاثاً وعشرين سنة ثم خدم الأمين والمأمون، وله كتب منها: رسالة في المطعم والمشرب، رسالة مختصرة في الطب، كتاب في صنعة البخور. ثم توالى نفر من آل بختيشوع اشتغلوا بالطب وبالنقل، منهم: بختيشوع جبرائيل (ت256هـ)، جبرائيل بن عبيد الله (ت396هـ)، عبد الله بن جبرائيل (ت بعيد 450هـ).

– آل ماسويه: كان ماسويه تلميذاً (يعني متمرناً) في مارستان جنديسابور، فغضب عليه جبرائيل بن بختيشوع وأخرجه منه، فجاء ماسويه إلى بغداد واختص بالتكحيل (تطبيب العيون) ولقي توفيقاً عظيماً، وكان مسيحياً سريانياً[xxii].

وجاء بعد ماسويه ابنه أبو زكريا يوحنا بن ماسويه، وكان فاضلاً خبيراً بصناعة الطب، ولّاه الرشيد ترجمة كتب يونانية وجدها في أنقرة وعمورية، وقد توفي يوحنا بن ماسويه في سامراء (243هـ)، ولابن ماسويه تصانيف منها: كتاب البرهان، كتاب الحميات، كتاب الأغذية والأشربة، كتاب في الجذام، وهذا لم يسبقه أحد إليه، كتاب الأدوية المسهلة، كتاب السموم وعلاجها، كتاب تدبير الأصحاء، كتاب تركيب خلق الإنسان (التشريح)، كتاب الحيلة للبرء.

وكان ميخائيل بن ماسويه (أخو يوحنا) طبيباً مقتدراً معتداً بنفسه لا يقيم وزناً لغيره من الأطباء، ولكنه كان يصيب التطبيب.

وهنالك عدد من النقلة أكثر شهرة من أصحاب تلك الطبقات كآل حنين وآل ثابت بن قرة وآل موسى المنجم، وقد تحدثنا عنهم [xxiii].

2 _ النتائج الحضارية للترجمة العربية الإسلامية:

– كانت حركة الترجمة إلى اللغة العربية واسعة النطاق، وشملت أكثر ما أنتجه الأقدمون في الفلسفة والطب والرياضيات والفلك والكيمياء والنبات وغيرها، حتى لنكاد نظن أنه لم يبق شيء من هذا التراث لم ينقل إلى العربية. ولم تمض مئة سنة تقريباً على تأسيس بغداد حتى كان العرب والمسلمون يقرؤون بلغتهم معظم ما كتبه اليونان والفرس والهنود.

– لقد قام النقلة بالترجمة عن اللغات اليونانية والسريانية والفارسية والهندية (السنكسريتية) بالدرجة الأولى، كما ترجموا أحياناً عن النبطية واللاتينية وعن القبطية (في مطلع أيام التعريب). وهذه هي تقريباً كل اللغات الحضارية التي كانت موجودة في القرون الأولى من العهد الإسلامي، وكتبت بها مختلف علوم الأوائل. غير أن أكثر ما نقل إلى العربية في تلك النهضة هي الكتب اليونانية (سواء المكتوبة باليونانية أو السريانية)، وأكثرها في ميادين الفلسفة والطب والرياضيات والفلك وفروع العلم الطبيعي. وبهذا

الخصوص يقول كراتشكوفسكي: «ويبدو جلياً أن شمول التراث الهلنستي واتساع مداه واستيعابه المنظم لدى العرب هو الطابع المميز في تاريخ نفوذ العلم اليوناني إلى العرب لدى مقارنته بالهندي بالفارسي. ففيما يتعلق بالتراث الهندي والفارسي نلتقي بمصنفات منفردة تدين بظهورها لمجهودات فردية، وذلك بعكس التراث اليوناني الذي بدأ العمل فيه بطريقة منظمة. وفي زمن قصير انتشرت بين العرب مؤلفات أبقراط وجالينوس وأوقليدس وأرخميدس (أرشميدس) وميناوس وأبولونيوس وماريوس، وهي تمثل في مجموعها القاعدة الأساسية للعلم اليوناني».

– شملت عملية التعريب كل ما كان بين الأيدي من تراث الأوائل – لا سيما التراث اليوناني كما ذكرنا – إلا في ميدان الأدب والتاريخ، فقد كانت عملية التعريب في هذا الباب انتقائية؛ أي: إن الحضارة العربية الإسلامية اختارت ما يتفق وحاجاتها. ومع كثرة ما نقل عن اليونان أهملت تماما ترجمة كتبهم التاريخية والأدبية إلا في القليل النادر، بينما نقل ما يقابلها عند الفرس والهنود، حيث ترجمت جملة صالحة من تواريخ الفرس وأخبار ملوكهم وسيرهم وبعض كتب السياسة والقصص؛ وترجمت عن الهنود بعض كتب السحر والطلسمات.

– أما عن عدد الكتب التي نقلت فهي بضع مئات، فمجموع كتب الطب – مثلاً – التي ترجمت عن اليونانية وحدها يبلغ حوالي تسعين كتاباً على الأقل. وقد قام جرجي زيدان في كتابه (تاريخ التمدن الإسلامي) بعمل حصر للكتب المترجمة التي كان عليها معول علماء العرب والمسلمين فيما صنّفوه، وعلى كثرة ما ذكر الباحث من أسماء هذه الكتب موزعة على فروع العلم المختلفة فإن عمله هذا كان محدداً، «لتشتت أخبارها وضياع كثير منها» كما يقول.

وعلى الرغم من هذه الكثرة فقد بذلت في الترجمة جهود مضاعفة في كثير من الأحيان جعلت العديد من الكتب تترجم مرتين، أو ترجمت – أحياناً – ثلاثاً أو أربعاً، أو تصحح مرة بعد مرة. ومن هنا كان من أعمال التعريب خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين ما نقرؤه في تراجم كثير من كبار النقلة من أنهم «صححوا» ترجمات غيرهم، وعن ترجمة الكتاب الواحد أكثر من مرة. وقد يتعاون بعض التراجمة على كتاب واحد معاً، أو قد ينقلونه إلى السريانية أو الفارسية أولاً تمهيدا لنقله إلى العربية في عملية من الترجمة المزدوجة. ولا يمكن أن ينظر إلى هذه الأعمال إلا على أنها مراحل متتالية من الجهد المنظم المتعمد للوصول لا إلى النصوص الصحيحة الأصلية فقط، ولكن إلى أمرين آخرين في وقت واحد: الاتصال المباشر بعلوم الأوائل في لباب العمليات الفكرية التي أبدعها من جهة، والوصول باللغة العربية – بالمقابل – إلى مستوى التعبير العلمي اللازم لاستيعاب تلك العمليات الفكرية والتفاعل معها وتجاوزها.

ومن ناحية أخرى لم يكن عامة المترجمين آلة للنقل في مترجماتهم لمصنفات الأمم الأخرى إلى اللغة العربية، وإنما كانوا متخصصين في العلوم التي يقومون بترجمتها، وكثيراً ما كانوا يقومون بعمل ملخصات وتفاسير وشروح لعدد من الكتب المترجمة، بالإضافة إلى تآليفهم العديدة في مختلف العلوم العقلية والتجريبية التي عرفوها من خلال ترجماتهم، أو ما كان موجوداً منها قبل ذلك، أو ما أوجده البعض منهم بالفعل و لم يكن معروفاً من قبل.[xxiv]

– وعادة ما كان يقوم بالترجمة جماعات من المترجمين، يشرف على كل منها رئيس يراجع أعمالهم، ويصحح أخطاءهم، ويقف وراء حركتهم الخلفاء والأمراء وأهل اليسار من محبي العلم، يغذونها بالمال، ويتعهدون أهلها بالرعاية والتقدير، بقطع النظر عن مللهم أو نحلهم أو أنسابهم.

ولعل من نتائج هذا أن أضحت الترجمة حرفة أو صنعة من صناعات الراغبين في خدمة البلاط العباسي وقصور الكبراء ونشدان الثروة والجاه، أو كانت على الأقل باب رزق لهم. ولحقها ما لحق الأمور الأخرى ضمن النظام العباسي؛ فكما صارت الوزارة والكتابة والحجابة أعمالاً وراثية كذلك صارت الترجمة عملاً وراثياً يتوالى عليه من الأسرة الواحدة أكثر من جيل، ويكفى أن نتذكر في هذا الصدد آل بختيشوع، وآل حنين بن إسحق، وآل البطريق، وآل قرة، وغيرهم».

– ومن الملاحظ أن المترجمين كانوا – في كثرتهم الساحقة – من غير العرب، ووجود بضعة أسماء معدودة عربية لا يمنع من تعميم هذه الظاهرة. وكان أكثر العاملين بالترجمة نساطرة من المسيحيين، ثم يأتي من بعدهم في الكثرة اليعاقبة، وكلا الفريقين ظل على دينه إلا القليل. وقد اختص هؤلاء جميعاً بالتراث الإغريقي. وأما التراث الفارسي فالفرس الذين تحولوا إلى الإسلام خاصة هم الذين عملوا على نقله إلى العربية. وأما ما نقل عن الهند فالهنود بدورهم هم الذين نقلوه.

وقد يقال: إن جمهرة المترجمين كانوا من الأجانب غير المسلمين، بل ومن غير العرب، فإذا صح أن يكون لأحد فضل في حركة نقل العلوم فإلى هؤلاء يرجع الفضل. والرد على هذه المقولة يتلخص في أن الفضل مشترك، والسبب الذي من أجله كانت غالبية المترجمين من غير العرب هو أن الترجمة تحتاج إلى معرفة عدد من اللغات، و لم يكن هذا متوفراً للعرب، ولكن ذلك لا يكفي، ولكي يقوم هؤلاء النقلة من غير المسلمين والعرب بمهمتهم لابد من وجود من يحرص على إتمام هذه الهامة ويتكفل بنفقاتها، وقد كان قادة العرب على استعداد للبذل وحرص على تحقيق النهضة العلمية التي يرجع إليهم – لا إلى سواهم – فضل بدئها والاستمرار فيها ونجاحها.

– وقد انحصرت عملية التعريب كلها – بعد غياب دمشق في القرن الأول الهجري – في العراق، وفي بغداد منها بالذات، فإليها كان يهرع المترجمون – على اختلاف جنسياتهم وأديانهم – من حران وجنديسابور والرها وأنطاكية وغيرها من المدن. ولا نكاد نسمع عن تعريب في الشام أو مصر أو فارس في بداية العصر العباسي. وبالرغم من أننا لا نشك في أن هذه الأقطار لم تكن بعيدة عما يحدث في بغداد من بناء للحضارة إلا أننا لا نشك في الوقت نفسه أن بغداد كانت المركز الأكثر حيوية وحركة وإنتاجاً، وأن هذا التمركز خدم عملية التعريب، وسمح لها على الأقل أن تلتقي في بؤرة واحدة، وأن تتبادل الخبرات، وأن ينطلق منها العلماء لنشر الحضارة والمدنية في ربوع الدولة الإسلامية كلها.

لقد تقاطر العلماء النقلة من الأنحاء المختلفة إلى بغداد من أجل تجسيد هدف واحد، ألا وهو خدمة العلم عن طريق المسلمين بنقل ما خلفته أمم اليونان والفرس والهند من تراث إلى اللغة العربية. وعلى الرغم من اختلاف أهميتهم وقدرهم في هذا السبيل فإنهم هم الذين يقفون وراء ما وصل إليه العرب والمسلمون من تقدم وازدهار في شتى مجالات الحضارة[XXV].

3 _ أهم مراكز الترجمة:

كانت الإسكندرية وأنطاكية وحران ونصيين والرها وجنديسابور؛ أهم المراكز العلمية القديمة (أو المدارس) التي كانت في مجموعها ذات أثر فاعل ومباشر في ازدهار حركة الترجمة ونقل تراث الأوائل إلى اللغة العربية في علوم الفلسفة والطب والصيدلة والفلك والرياضيات وعلوم الطبيعة والحياة[xxvi].

فلقد كانت هذه المدارس بمثابة جسور عبرت فوقها العلوم من حضارات مختلفة، فامتزجت فيها رياضيات وفلك بابل وهندسة مصر وعلومها الطبية وعلوم اليونان والهنود والفرس، ثم شكّلت – ومنذ الفتح الإسلامي – قوساً جغرافياً يبدأ بالإسكندرية، ويمر عبر البحر المتوسط بأنطاكية ونصيين وحران وجنديساور، لتنتهي المسيرة العلمية في خطوتها الأخيرة ببغداد، تلك المدينة التي قُدّر لها أن تكون عاصمة الدنيا عدة قرون، ومركزاً حضارياً جامعاً تلاقت فيه الحكمة القديمة من يونانية ورومانية وفارسية وهندية لتتعانق مع إبداعات المسلمين الحضارية.

وأدت مدرسة الإسكندرية – بوجه خاص – دوراً مباشراً في إيقاظ الحركة العلمية في العصر الأموي في مجالات الفلسفة والطب والرياضيات، والسبب الرئيس في ذلك هو أنَّ هذه المدرسة انصرفت تماماً منذ القرن الأول الهجري عن متابعة رسالتها الثقافية بعد أن انتقل رجال الفكر منها زمن الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى أنطاكية بالشام، وإلى حران وجنديسابور والرها وقنسرين ورأس العين، وتفرق علمهم في البلاد، الأمر الذي جعل خلفاء بني العباس وغيرهم من المهتمين بحركة الترجمة وإحياء علوم الأوائل أن يعتمدوا على مدارس جديدة أصبحت أكثر أهمية وأكثر قرباً من مدرسة الإسكندرية. وتأتي مدرستا حران وجنديسابور في مقدمة المدارس الجديدة، حيث كانت كل منهما تموج بالعلماء وتزخر بالأطباء، وأمدتا حركة الترجمة بجزء كبير من مادتها العلمية، ومنهما جاء أبرز النقلة الذين أسهموا في ازدهار هذه الحركة، وكان أشهر الأطباء في بغداد من نتاج هاتين المدرستين.

وكانت تلك المدارس مجتمعة السبب المباشر وراء قيام أعظم مركز علمي للترجمة والتأليف والنشر أنشئ في تاريخ الإسلام الحضاري والثقافي على مدى خمسة قرون، ألا وهو بيت الحكمة البغدادي الذي اجتمع فيه من أجلّ العلماء من الفلاسفة والأطباء والفلكيين والرياضيين وأصحاب الصناعات لترجمة الكتب التي تبحث في شتى العلوم والفنون والمعارف والصنائع[xxvii].

4 _ أهم الكتب المترجمة:

_ كتاب زيج الشهريار:

و لم تجد النظريات الفلكية والجغرافية الهندية طريقها إلى العرب مباشرة فحسب، بل وصلتهم أحياناً في ثوبها الفارسي، ومن بين المصنفات الفارسية كتاب اشتهر «بزيج الشهريار» أو «زيج الشاه» أو «زيج شهرياران الشاه»، ومعناه: زيج الملك، نقله إلى العربية – في حوالي منتصف القرن الثاني الهجري – أبو الحسن علي بن زياد التميمي، وهذا الزيج بني على قواعد وأصول أغلبها هندية كما يقول نلينو، وأصله الفارسي معروف باسم «زيك شتروا آيار»، ويبدأ حساب توقيته ببداية ملك يزدجرد عام 632م، وهو يزدجرد الثالث آخر ملوك آل ساسان.

وقد انتشر زيج الشهريار ومذاهبه بين الفلكيين البغداديين، فقد أفاد منه العالم الفلكي المعروف باسم «ما شاء الله»، وكان يهودياً زمن الخليفة أبي جعفر المنصور (136هـ 158هـ)، و لم تكن

نظرياته غريبة على محمد الخوارزمي (نزيل بغداد) أكبر دعاة المذهب اليوناني في علم الفلك، وكثيراً ما اعتمد عليه الفلكي حبش المروزي (الأصل) البغدادي الذي عاش في زمن لمأمون والمعتصم، وذلك أنه صنّف أحد أزياجه الثلاثة على مذهب الفرس وسمّاه «زيج الشاه»، كما إن أبا معشر جعفر بن محمد البلخي نزيل بغداد (ت 272هـ) تأثّر في أزياجه التي وضعها بزيج الشهريار[xxviii].

_ كتاب المجسطي لبطليموس:

وكان أهم كتاب اعتمد عليه العرب والمسلمون في بداية نهضتهم العلمية في علم الفلك هو كتاب «المجسطي» لبطليموس القلوذي، بل ربما كان هذا الكتاب هو الكتاب الوحيد الذي دارت من حوله جميع البحوث الفلكية، واستقى منه كل الفلكيين في العصور الوسطى.

وهذا الكتاب هو أهم ما خلّفته حضارة الإغريق في علم الفلك، ذلك أن مؤلفه انتهت إليه علم حركات النجوم ومعرفة أسرار الفلك، وعنده اجتمع ما كان متفرقاً من هذه الصناعة بأيدي اليونانيين والروم وغيرهم، وبه انتظم شتاتها وتجلى غامضها. ولا يعرف كتاب أُلف في علم من العلوم قديمها وحديثها فاشتمل على جميع ذلك العلم وأحاط بأجزاء ذلك الفن غير ثلاثة كتب: أحدها كتاب المجسطي في علم هيئة الفلك وحركات النجوم. والثاني: كتاب أرسطوطاليس في علم صناعة المنطق. والثالث: كتاب سيبويه البصري في علم النحو العربي.

وقد ترجم «المجسطي» إلى العربية عدة مرات، يقول النديم: «وأول من عني بتفسيره وإخراجه إلى العربية: يحيى بن خالد بن برمك (ت 191هـ)، ففسره له جماعة فلم يتقنوه ولم يرض ذلك، فندب لتفسيره أبا حسان وسلم صاحب بيت الحكمة – ببغداد – فأتقناه، واجتهدا في تصحيحه بعد أن أحضرا النقلة المجودين، فاختبرا نقلهم، وأخذا بأفصحه وأصحه».

ولم يقف الجهد عند هذا الحد؛ فقد شارك في ترجمة المجسطي عميد المترجمين في بغداد: حنين بن إسحق العبادي (ت 260هـ)، وقام بمراجعة هذه الترجمة عالم الفلك الشهير في عصره: ثابت بن قرة الحراني (ت 288هـ) [xxix].

_ نماذج عن كتب التراث اليوناني:

اطّلع علماء المسلمين في بغداد على ما حصلوا عليه من كتب التراث الإغريقي في النبات والفلاحة، ونقلوها إلى اللغة العربية، مثل كتاب «الفلاحة» لديموقريطس Democrite وثلاثة كتب لأرسطو: «الفلاحة» في عشر مقالات، وكتاب «الإبانة عن علل النبات» الذي أشار إليه اليعقوبي في كتابه «البلدان»، والثالث: كتاب «النبات» الذي ترجمه ثابت بن قرة الحراني البغدادي (ت 288هـ) بعنوان «تفسير كتاب أرسطو في النبات»، وقام إسحق بن حنين (ت 298هـ) بمراجعته وتنقيحه، وكتاب «ثاوفرسطس» Theophreacte – أحد تلاميذ أرسطو – الذي ترجمه إبراهيم بن بكوس (في القرن الثاني الهجري) تحت عنوان «أسباب النبات»، إلى جانب أهم كتاب اعتمد عليه العلماء المسلمون في مجال النبات والأدوية، وهو كتاب «الحشائش» لديسقوريدس.

ونقل علماء بغداد أيضاً بعض مؤلفات جالينوس في علم النبات، أهمها كتاب «النبات»، ومقالة في استخراج مياه الحشائش أو «خواص الحشائش ومنافع الحيوان»، وترجموا كذلك كتاب «الفلاحة»

لأبولونيوس (Apollonios)، وكتاب «الفلاحة» لأناطوليوس (Anatolios)، وترجم كل من قسطا بن لوقا ويحيى بن عدي المنطقي (تلميذ الفارابي) واصطفن بن بسيل وسرجس بن هلبا الرومي إلى العربية كتاب «الفلاحة الرومية» لمؤلفه قسطوس بن أسكور الرومي[xxx].

ومن كتب النبات: كتاب النبات، وكتاب الحيوان، لأرسطوطاليس، وهذان الكتابان وصلا إلى الأندلس، وقام أبو بكر محمد بن يحيى بن الصائغ المعروف بابن باجه (ت 533هـ) بدراستهما والتعليق على بعض فصولهما[xxxi].

يضاف إلى ذلك كله كتب مفردات الأدوية المترجمة عن الهنود واليونانيين وهي تحتوي على أسماء عدد هائل من النباتات وخواصها الطبية.

والمقصود أن علماء العرب والمسلمين ترجموا ما ورثوه من إنتاج حضارات الأوائل في علم النبات. ولكن – وعلى عادة علماء العرب والمسلمين في مثل هذه العلوم – لم تقتصر جهودهم على ترجمة كتب التراث القديم فحسب، وإنما تجاوزوها إلى مرحلة الدراسة والتأليف، وأضافوا إلى هذا العلم الكثير من الدراسات العلمية التي اعتمدت على التجربة والملاحظة والدراسة الميدانية، ونبغ من العرب والمسلمين عدد من النباتيين، ليس فقط في مشرق الدولة الإسلامية (ومركزها بغداد)، ولكن أيضاً في مغربها (الأندلس وشمال إفريقية)[xxxii].

وقد كان الإغريق على دراية بعلم الحيوان، وصنفوا فيه كثيراً من المصنفات ترجمت جميعها تقريباً إلى اللغة العربية في إطار حركة الترجمة التي شهدتها بغداد خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة، ومن أشهر هذه الكتب: (كتاب الحيوان) لديوقريطس (تلميذ أرسطو) الذي يعد أول من حاول تصنيف الحيوانات حسب أنواعها، مع الإشارة إلى طبائعها ومنافعها. ومؤلفات أرسطو العديدة في علم الحيوان، مثل: كتاب «أعمار الحيوان»، وكتاب «حركات الحيوان المكانية على الأرض»، وكتاب «اتخاذ الحيوانات ما يتخذ من المواضع ليأوي إليها»، و«كتاب تناسل الحيوان»، وكتاب «الحيوان»، وهذا الكتاب الأخير أهم كتاب له في هذا العلم، نقله عن السريانية يوحنا بن البطريق، ويقع في تسع عشرة مقالة. وقد عني به علماء بغداد غاية العناية، دراسة وشرحاً واختصاراً واقتباساً[xxxiii].

وقام علماء بيت الحكمة (مدرسة العلم في بغداد) بترجمة رسائل الإغريق الموسيقية إلى العربية، وكان من علماء الموسيقى الإغريق الذين ترجمت آثارهم: أرسطكسنوس (Aristoxemus) و«أوقليدس» و«بطليموس» و«نيكوماخوس» – من تلاميذ أفلاطون –، وقد تُرجم للأول منهم كتاب «الإيقاع»، وتُرجم للثاني كتابان هما: كتاب «النغم» – ويعرف أيضاً بالموسيقى – وكتاب «القانون»[xxxiv].

– المصنفات الهندية الطبية:

نقل العرب عن اللغة الهندية (السنسكريتية) كثيراً من كتب الطب والنجوم والرياضيات والحساب والتواريخ[xxxv].

وذكر صاحب كتاب: (معارف العوارف في أنواع العلوم والمعارف) كثيراً من الكتب الهندية التي نُقلت إلى العربية، ومنها: كتاب سرد، عشر مقالات، أمر يحيى بن خالد البرمكي بتفسيره لمنكه الهندي في

البيمارستان ويجري مجرى الكناش، وكتاب استانكر الجامع بتفسير ابن دهن، وكتاب سيرك، فسّره عبد الله بن علي من الفارسي إلى العربي، لأنه نقل أولاً من الهندي إلى الفارسي، وكتاب سندستاق، ومعناه كتاب صفوة النجاح، فسّره ابن دهن صاحب البيمارستان، وكتاب مختصر العقاقير، وكتاب علاجات الحبالى، وكتاب توقشتل، وفيه مئة داء ومئة دواء، وكتاب روسا الهندية في علاجات النساء، وكتاب السكر للهند، وكتاب أسماء عقاقير الهند، وفسره منكه لإسحاق بن سليمان، وكتاب رائي الهندي في أجناس الحيَّات وسمومها.

وذكر ابن أبي أصيبعة في طبقات الأطباء طائفة من أطباء الهند، مثل كنكه وضجهل وشاناق ومنكه وصالح بن بهله، وترجمهم في كتابه وذكر قوماً آخرين بغير ترجمة مثل باكهرراجه، صكه، داه، أنكر ذنكل جبره، أندي، جاري، وقال كل هؤلاء أصحاب تصانيف، وقد نقل كثير منها إلى العربية. وممن نقل عن كتب الهند: الرازي، فلقد نقل في كتابه الحاوي وفي غيره عن كتب جماعة من الهند، مثل كتاب شرك الهندي، وهذا الكتاب فسره عبد الله بن علي من الفارسي إلى العربي، لأنه أولاً نقل من الهندي إلى الفارسي، وعن كتاب سرد، وفيه علامات الأدواء، ومعرفة علاجها، وأدويتها، وهو عشر مقالات أمر يحيى بن خالد بتفسيره، وكتاب بدان في علامات أربعمئة وأربعة أدواء ومعرفتها بغير علاج، وكتاب سندهشان، وتفسيره كتاب صورة النجح، وكتاب فيما اختلف فيه الهند والروم في الحار والبارد، وقوى الأدوية، وتفضيل السنة، وكتاب تفسير أسماء العقار بأسماء عشرة، وكتاب لسانكر الجامع، وكتاب علاجات الحبالى للهند، وكتاب مختصر في العقاقير للهند، وكتاب توقشتل وفيه مئة داء ومئة دواء، وكتاب أوسي الهندية في علاجات النساء، وكتاب السكر للهند، وكتاب رائي الهندي في أجناس الحيات وسمومها، وكتاب التوهم في الأمراض والعلل لأبي قبيل الهندي.

ثم ذكر ابن أبي أصبيعة في ترجمة ساناق أن له كتاب السموم في خمس مقالات، فسره من اللسان الهندي إلى اللسان الفارسي منكه الهندي، وكان المتولي لنقله بالخط الفارسي رجل يعرف بأبي حاتم البلخي فسره ليحيى بن خالد بن يرمك، ثم نقل للمأمون على يد العباس بن سعيد الجوهري مولاه، وذكر ابن أبي أصبيعة في ترجمة جودر أن له من الكتب كتاب المواليد و قد نقل إلى العربية[xxxvi].

ومن المصادر الهندية التي استفاد منها علماء المسلمين في بداية عصر النهضة الإسلامية ببغداد في مجال الأدوية والعقاقير: كتاب «أيورافيدا» Ayurvedas (أو ما يعرف بعلم الحياة) وكتاب «سوسروتا» Susruta الذي يحتوي على معلومات مهمة عن الجراحة والتشريح وما يقرب من سبعمئة عقار نباتي. وكتاب «السموم» تأليف شانان الهندي، ونقله «صنكه» الهندي من اللغة الهندية إلى الفارسية، ثم نقله إلى العربية العباس بن سعيد الجوهر مولى المأمون بأمر من الخليفة، وكان يتولى قراءته عليه[xxxvii].